



## كتاب الاعتبار

د. عبد القدوس أبو صالح

بخنجره، وهو غلام صغير لم يتجاوز العاشرة من عمره، وهو يقول عن والده: «وما رأيت الوالد - رحمه الله - ينهاني عن القتال ولا ركوب خطر، مع ما كان في، وأرى من إشفافه وإيثاره لي». بل كان والده يصطحبه إلى صيد الأسود، ويشركه في القتال والغارات، مع ما كان يأخذه به منذ صغره من إقبال على العلم، وتعميد على قراءة القرآن حتى يسأله كل يوم عن حصته من القرآن.

ولم تكن النساء أقل شأنًا من الرجال آنذاك إسهامًا في تربية أولادهم على الجرأة والإقدام. وقد ذكر أسامة في كتابه طرفًا من مواقفهن الرائعة، التي تنطق بشجاعة المرأة المسلمة، وما تفرسه في نفوس الأبناء، وتثيره في نفوس الرجال من الحمية والحماسة. فها هي ذي امرأة عجوز تضرب الصليبيين بالسيف، وها هي ذي أخرى تأسر ثلاثة من رجال الإفرنج، وها هي ذي إحدى النساء ترى ابن عم أسامة يركن إلى الفرار فتقول له: «ويحك وأي عيشة تعيشها إذا اقتضعت في أهلك وانهمزت عنهم؟ أخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم». وها هي ذي امرأة مسلمة تقتل زوجها بيدها لأنه أعان الصليبيين على قومه، وها هي ذي أخيرًا أم أسامة ترى الأعداء يحاصرون الحصن، ويكادون يصلون إليها، فتجلس ابنتها على رؤس عال مطل على الوادي السحيق، وهي تهم بإلقائها وإلقاء نفسها منه حتى لا تقع في أيدي الأعداء.

وكل ذلك جعل أسامة يقول فيهن: «فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال.. وما ينكر للنساء الكرام الأنفة والنخوة والإصابة في الرأي.. ولعمري إنهن أمهات الرجال».

وأقول أخيرًا: إن كتاب الاعتبار جدير بأن يعاد نشره نشرة ميسرة، تحببه إلى قلوب القراء، ليكون رفيقًا للطالب في أوقات فراغه، وأنيسًا للجندي المسلم المربط في جبهته، ونبراسًا للأمة التي يريد التاريخ أن يعيد نفسه على أرضها التي روتها الدماء، وكانت دائمًا أرض البطولات ■

إن من أبدع ما ترك الأول للآخر، وما خلف لنا السلف الصالح كتاب الاعتبار، لأسامة بن منقذ. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إنه من أوائل كتب التراث الجديرة بأن توضع بين أيدي شبابنا وفتياتنا، لأنه يمثل الفروسية الإسلامية والفتوة العربية في عصر الحروب الصليبية، ويقدم للأجيال المعاصرة صورة صادقة عما كان عليه أجدادهم من رجولة تامة وشجاعة فائقة، وما كان لهم من مدنية زاهرة وحضارة شامخة مما جعلهم يشرفون على الغزاة الصليبيين من قمم عالية، ويدحرون حملاتهم المتلاحقة، ويستقذون القدس من رجسهم، ويظهرون البلاد منهم بعد أن أقاموا لهم دويلات متعددة في نحو قرنين متتاليين.

ويعد كتاب الاعتبار بحق أول كتاب في السيرة الذاتية في أدبنا العربي إن لم نقل في آداب الأمم كلها، وقد ألفه أسامة ابن منقذ بعد أن نيف على التسعين من العمر، مدونًا فيه مذكراته الشائقة، وتجاربه المثيرة في حياته الحافلة بالجهاد والمغامرات حتى سماه صلاح الدين «فارس الأمة» وحتى أصبح اسمه في كتب التراجم والتاريخ مرادفًا للبطولة.

ونحن نرى في كتاب الاعتبار أثر العقيدة في شخصية أسامة حين تدفعه إلى الإقدام في الحرب غير هباب ولا وجل، لأن المسلم يؤمن - كما يقول أسامة - بأن «الله مقدر الأقدار، ومؤقت الأجيال والأعمار» وأن «ركوب الحروب لا ينقص مدة الأجل المكتوب». وهو يقول في مكان آخر: «فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، واقتحمت المخاوف والأخطار، ولا قيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضربت بالسيوف وطعنت بالرماح وجرحت بالسهام.. وأنا من الأجل في حصن حصين إلى أن بلغت تمام التسعين».

ويحدثنا أسامة في كتابه كيف كان والده يعود على الشدة والجرأة، فيتوكله يمسكها أفعى هائلة بيده، ويقتلها



## بين ملك إنكلترا والخليفة الأندلسي هشام الثالث\*

إلى سامعته العظيمة / خليفة المسلمين / هشام الثالث الجليل المعظم  
من جورج الثاني ملك إنكلترا والنرويج والسويد  
بعد التعظيم والتوقير: فقد سمعنا عن الرقي العظيم  
الذي تتمتع به حضرة السلاطين معاصرينا  
والسلاطين جي ياقوشه العاصم  
وأرجو لأبنائنا أجيالنا من تلاميذ من هذه الحضرة  
أن يكون بمثابة حكمة لآبائهم وأجدادهم  
أنظر العلم على أبنائنا الذين يمتلئون بالعلم من أرضنا الأندلسية  
وقد سمعنا أبنائنا حبيبنا الأمير (جونايد)  
على رأس بعثة من تلاميذ الأفاضل الإنجليز  
لنتمتعهم بقلعة أمتنا العزى والناس العظماء  
ونتمنى مع ديمقراطية جميع عناية عظميتكم  
وحتى حماية الملكية الشريفة  
وإذا أردتم الأمير الصغيرة بصيرة متواضعة لمطامير العادل  
أرجو الشكر بقبولها مع التعظيم والتوقير والتعظيم  
من خادمكم الصفيح

George The Second  
جورج الثاني



### رسالة ملك إنكلترا

« من جورج الثاني ملك إنكلترا  
والغال والسويد والنرويج إلى الخليفة  
ملك المسلمين في مملكة الأندلس  
صاحب العظمة هشام الثالث الجليل  
المقام، وبعد التعظيم والتوقير:  
فقد سمعنا عن الرقي العظيم  
الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد  
العلم والصناعات في بلادكم العامرة،  
فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه  
الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء  
أثركم لنشر أنوار العلم في  
بلادنا التي يسودها الجهل  
من أربعة أركان.

ولقد وضعنا ابنة  
شقيقنا الأميرة دويانت  
على رأس بعثة من بنات  
أشراف الإنكليز تتشرف  
بلثم أهداب العرش والتماس  
العطف لتكون مع زميلاتنا  
موضع عناية عظمتكم،  
وحماية الحاشية الكريمة، وحذب من  
اللواتي سيتوافرن على تعليمهن.

ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة  
هدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو  
التكرم بقبولها مع التعظيم والحب  
الخالص.  
من خادمكم المطيع جورج ملك  
إنكلترا.

### جواب الخليفة الأندلسي

#### هشام الثالث..

بسم الله الرحمن الرحيم.  
الحمد لله رب العالمين، والصلاة  
والسلام على نبيه سيد المرسلين،  
وبعد:

إلى ملك إنكلترا وإيكوسيا  
واسكندنافيا الأجل...

اطلعت على التماسكم فوافقت  
على طلبكم بعد استشارة من  
يعينهم الأمر من أرباب الشأن،  
وعليه نعلمكم أنه سوف ينفق على  
هذه البعثة من بيت مال المسلمين  
دلالة على مودتنا لشخصكم  
الملكي.

أما هديتكم فقد تلقيتها  
بسرور زائد، وبالمقابل أبعث  
إليكم بغالي الطنافس الأندلسية  
وهي من صنع أبنائنا هدية  
لحضرتكم، وفيها المغزى الكافي  
للتدليل على التفاتنا ومحبتنا،  
والسلام.

خليفة رسول الله في ديار  
الأندلس هشام الثالث ■

● العرب عنصر السيادة في القرون  
الوسطى- للمؤرخ الإنكليزي السير  
جون دونابورت، كذلك راجع كتاب  
الاستذكار لابن عبد البر- المجلد  
الأول.